مـوسـى عليه السلام

ولادة موسى وتربيته

تمادى فرعونُ في غَيِّه، وعلاَ في الأرض، وأنزلَ الخسْفَ[1] بطائفة من رعاياه هم بَنُو إسرائيل، إذ عاشوا في ظلاله عيشةَ البلاءِ، واصطبروا على اللأوَاء[2]، وبينما هم يضطربون ويَرْزَحُون[3] في نكد من العيش وسوء الحال، إذ تقدَّمَ الكاهِنُ من فرعون وقال له، يُولَـدُ مولود في بني إسرائيل يذهَبُ مُلكك على يده، فثارت ثورَتُـه، وسَدِر[4] في بُهْتَانه، وأمعن في غَيِّه، فذبح أبناءهم واستبقى نساءهم، ولكنَّ قدرَة الله تعالى تسامَتْ أن يقف أمامها تدبير خائب، فقدَّر في قديم أزَله لهؤلاء المستضعفِين أن يرثوا مُلْكَ هذا الطاغية الجبَّار على يد طفل يُرَبَّن في بيته، ولكنه كالورد ينبتُ من ثنايا الشوك، وكالفجر يَدْرُج من مهد الظلام.

مَكَّن الله لبني إسرائيل، وأوْرَثَهُمْ أرض مصر والشام، وأرى فرعونَ وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون.

جلست (يوكابد) في ركنٍ مِنْ منزلها، وقد جاءها المَخَاضُ، فدعت قابلةً لتهيىء لها مثل ما يكون في هذه الحال، فعالجتها، فلما وقع موسى على الأرض، اضطربت نفسها، ولكن حُبّهُ تغلغل في قلبها فحرصت على حياته، وجدَّت في البُقْيا عليه، فلم يتَسرب خبرُهُ إلى فرعونَ عدوِّ الأطفال، واستمرّ ثلاثة من الشهور كذلك، حتى إذا نشر الملك عيونه في المدينة يتفحَّصون الأطفال ألْهَمَ الله أمَّ موسى أن تهيىء له صندوقاً تضَعُهُ فيه، ثم تُلْقي به في النيل، وترسل على الشاطىء أخْتَه تقصُّ أثرَه، وتُلِمّ بخبره، بعد أن ثبَّت فؤادها، وهَدَّأ رَوْعَها بقول كريم.

---

(١) أنزل الخسف بقومه: أذلهم.
(٢) اللأواء: ضيق المعيشة.
(٣) رزح فلانٌ: ضعف وذهب ما في يده.
(٤) سدر: تحير.

سارت أختُ موسى تقصُّ أثَرَه، وما كان أشد هَلَعِها حينما حُمِلَ الصندوق إلى فرعون، ولكن رحمةَ الله قريبٌ منه، فلم تكد تنظرُهُ امرأة فرعونَ حتى ألْقى الله محبته في قلبها؛ فطلبت إلى زوجها أن يكونَ ابناً لها وله، وقد أصبح قَلْبُ (يوكابد) فارغاً من الهمِّ والإشفاق على وَليدها، لأنها استودعته الله، وهي رابطةُ الجأش[1]، ثابتةُ الإيمان.

وسِيقت إليه المراضعُ، لعله يُقبل على واحدة منهن، فيروي غُلّته، ويشبعُ جَوْعته، ولكنه عاف المراضع؛ فانبرى هامان، وقال: إن هذه الفتاة تعرفه، فخذوها حتى تخْبرَ بحاله، ولما سئلت الفتاة قالت: إنما أردْتُ أن أكُون للملك من الناصحين، فأمرها فرعونُ أن تأتيَ بمن يكْفُله، وأقبل يحمل الطفل باكياً وهو يعلِّلُه حتى أقبلت امرأة، فاستأنس بها الوليد، والتقم ثَدْيها من دون النساء جميعاً.

فدهِشَ فرعون وقال لها: من أنتِ؟ فقد أبى كلّ ثدي إلا ثديك؟! فقالت أمُّ موسى: إني امرأةٌ طيِّبَة الرِّيح، طيِّبَةُ اللبن، لا أوتى بصبيّ إلا قَبِلَني. فدفعه إليها وأجْرَى عليها رِزْقاً، فرجعت إلى بيتها... وهكذا كافأها الله، فقرَّت عينها به، لتعلم أنَّ وعد الله حق.

* * *

خروج موسى من مصر

أتمت (يوكابد) رضاعَ ابنها موسى، ثم أسلمَتْهُ إلى القصر الفرعونيّ ليكونَ لهم عدوًّا وحَزَناً.

ولما بلغ أشُدَّه واستوى، أوْحى الله إليه بالنبُوّة، وآتاهُ العلم والحكمة. اتجهت أنظارُ المستَضْعَفين المغلوبين إلى مُوسى، ليَحْمِيَهُمْ مما أثقل كاهلهم من الظلم والآلام، وهؤلاء قَوْمُه، وهو ذو النفس الكريمة التي أشربت عزَّة الله، واستنارت بنُورِه.

عاهد مُوسى نفسَه على أن يكونَ لهؤلاء المظلومين نصيراً، وفيما هو يتجه نحو العاصمة الفرعونية، إذ وجد رجلين يقتتلان، أحدهما عِبْرِيٌّ من مشايعيه، والآخر فرعونيّ من أصحاب القوَّةِ والسلطان، فسأله مظاهِرهُ أن يحوُلَ بينه وبين اعتداء الفرعُونيّ، فهمَّ

(١) الجأش: النفس أو القلب ويقال: رابط الجأش: ثابت عند الشدائد.

مُوسى فضرب الفِرْعونيّ فكانت القاضية؛ ثم ندم على فـعْلَته، وعدَّها من عمل الشيطان، واستغفر ربه على ما فرط منه، فغفر له ربه إنه غفورٌ رحيم.

ولقد كان الغُـفْرَان نعمةً على مُوسى، وحافزاً لرحمته، وداعياً لسلامه، فاستعاذ بالله أن يكون ظهيراً[١] للمجرمين! ولكن مُوسى تغلّبت عليه بشريَّته وانتصرت على حَواسه طبيعةُ الإنسان فلم يُعَلِّق إرادته بإرادة مدبِّر الأمر، ومصرّفُ الكائنات، ولم يَسْتَثْنِ مشيئةَ الله، فَوَقع فيما عزم على النجاة عن غَوائله[٢] إذْ أصبح في المدينة خائفاً يترقب، فإذا الذي استنصرهُ بالأمس يستصرخُهُ، فرماهُ مُوسى بالغِواية والضلال، ولكنه اندفع مُظَاهرته، فظنّ أن مُوسى يقصد قتله فتقدم إليه مسترحماً قائلاً: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ ۖ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾﴾[٣].

فلم يكد يسمع الفرعونيّ هذا الاتهامَ الصريح ـ وقد كان قومُه في حيرة في أمر قتيل الأمس، لا يعرفون قاتله ـ حتى وافاهم وأخبرهم بخبر موسى؛ فتألّب[٤] القومُ يبحثون عن موسى ليمزِّقُوه شَرَّ مُمزّق، ولكن رحمة الله قريب، إذ جاء من أقصى المدينة رجلٌ يَسْعَى، قال: يا موسى إن المَلأ يأتَمِرُونَ بِك ليقتُلوك؛ ثم نصحه بالخروج من المدينة إلى حيث يشاءُ ربُّ العالمين.

* * *

موسى ينزل أرض مدين

خرج موسى من المدينة خائفاً يَترقَّب، مُتَّجِهاً إلى أن يصرفَ عنه كَيْدَ الظالمين: سار ثماني ليال قاصداً بلاد مَدْيَن ولا مُعين له إلا عناية الله، ولا رفيق يؤنسه إلاّ نور الله، ولا زاد يحمله إلاّ زاد التقوى، مشى حافياً حتى تساقطت جلودُ قدميه، جائعاً لتكاد تتراءى خُضْرَة البقل من بَطْنِه هُزَالاً وضعفاً.

---

(١) الظهير: المعين.
(٢) الغوائل جمع غائلة: الفساد والشر.
(٣) سورة القصص، الآية: ١٩.
(٤) تألب القوم: تجمعوا وتساندوا.

ولم يكن له عن كل ذلك إلا عزاء واحد، هو غنيمتُه بالبعد عن فرعون وقومه، ونجاتُه بعيداً عن الرقباء والكائدين.

توجّه إلى مدين، فوجد حَشْداً من الناس قد تزاحموا على مَورِد ماء، كلٌّ منهم يعتمد على قدرته في التقدُّم والمسابقة إلى البئر، ورأى مِنْ دونهم امرأتين تفصِلان أغناسهما، حتى لا تختلط بأغنام غيرهما في ضَعْفٍ وذلّة، إلى أن ينكشف هذا الحَشْد، وينصرف الجمع، فتتقدما للسُّقْيا.

ثارت في نفس نبي الله ثورة النَّصَفة[١]، وحماية المستضعفين؛ فتقدم وسألهما: ما خَطْبُكما؟ قالتا: لا نسقي حتى ينصرفَ الرِّعاءُ[٢] حَذَراً من مُزَاحمة الرجال، وقد جئنا نسقي اضطراراً، لأن أبانا شيخٌ كبير لا ينهض؛ فما تأخر موسى عن نجدة الضعيفتين، بل سَقى أغنامهما، وتَوَلّى إلى الظِّل، ثم انطلق لسانه يسترحم ربَّ السموات، ويستدرُّ العطف؛ لأنه فقير محتاج.

بكَّرت الفتاتان بالرُّجعَى إلى أبيهما الشيخ على غير عادة؛ فسألهما الخبر، فأخبرتاه، وقد استجاب الله استرحامَ موسى. فحنا عليه، إذْ ألهم الشيخ أن يرسل في طلبه إحدى ابنتيه، فجاءته الفتاة مستحيية متخفِّرة فقالت: ﴿إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾[٣].

تَبِع موسى الفتاة إلى بيت أبيها استجابةً للدعوة، فنزل صَدْراً رحْباً، وآنس حَرَماً آمناً؛ ثم قصّ عليه قصَصه، وأفضى إليه بمكنون سِرّه، فطمأنه الشّيخ، وقال: ﴿لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢٥﴾﴾[٤].

* * *

موسى يصاهر الشيخ ثم يعود إلى وطنه

هدأتْ نفسُ موسى في منزل الشيخ الكريم، وسكنت إلى صُحبته، ولا بِدْع فَنُورُ

(١) النصفة: الإنصاف.
(٢) رعاء جمع راعي وهو من يحفظ الماشية ويرعاها.
(٣) سورة القصص، الآية: ٢٥.
(٤) سورة القصص، الآية: ٢٥.

الإيمانِ يتلألأ في كلا القَـلْبَـيْن، وفَـيْضُ الإخلاص يتفجَّرُ من كلا الرجلين، وشبيهُ الشيء منجذبٌ إليه.

ولقد كان موسى كريماً فَتِيًّا، أثار في نفس الشيخ وبِنْـتَـيْه عوامل الإكبار والإعجاب، لما زانه الله به من طَبْع قويم، وخلق كريم؛ فتحرك في نفس الفتاة حبُّ الاستظهار بموسى وقوته، والإبقاء عليه لطهارته وأمانته، فقالت: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْأَمِينُ ﴿٢٦﴾﴾[1].

أوَ ليس هو الذي أقلّ الغِطاء عن البئر منفرداً مع صعوبة حَمْله، على ما كان به مِنْ تَعَب وهُزَال؟ أو ليس هو العفّ الظاهر الذَّيْل الذي أطرق برأسه حينما بلّغته رسالةَ أبيها واستدعته إليه؟ فسار أمامها وسارت خَلْفَه؛ وفاء لحقوق الطهارة وذِمَام المكرمات، وحتى لا تمتد عينُه إليها فيكون من الخائنين.

مرّ حديثُ الفتاة إلى أذنِ أبيها، فلم ينبّه غافلاً، ولم يحرِّك ساكناً: بل كان صدىً يرجِّع ما كان يجيشُ في صدر الشيخ من أمل ورجاء؛ أما وقد مزّق التماسُ الفتاةِ حجابُ السكوت، فقد استقرّ أبوها في مجلسه، ثم انبرى[2] يقول: يا موسى؛ إني لراغب في أنْ أزوّجك إحدى ابنتيّ هاتَـيْن على أن تـكون عوناً لي وظهيراً أجيراً ترعى الغنم، وتقوم بنصرتي ومساعَدتي ثماني حِجَج، وإن زدتَها اثنتين فتلك مِنَّـةٌ جـليلة أرجوها منك، ولا أحتِّـمُها عليك، وسأكونُ لـك إن شـاء الله من الأوفـياء المخلصين.

ولقد كان موسى شَرِيداً في بلاد مَـدْيَن، ووَحِيداً طريداً، نائياً عن الأهل، قصِيًّا عن الأخِلاّء، مستوحشةً نفسه: فلم يكد يسمع دعوة الشيخ حتى سرى أمل الحياةِ في نفسه مَسْرَى الماء في العود، وانطلق لسانه يقول للشيخ: إني لسعيد بصحبتك أيها السيد الكريم، قويٌّ بمناصرتك، عزيز بمؤازرتك.

طاب مُـقام موسى، واخضرّ في حياته عودُ الأمل: فأتمّ أقصى الأجَلَيْن، يكلأ أمورَ الشيخ، ويدّبر شؤونه برعاية الأمينِ الناصح الحكيم، وتمّ الزواجُ بإحدى الفتاتين، ثم

---

(١) سورة القصص، الآية: ٢٦.

(٢) انبرى: عَرَض.

وهب له صِهْرُه الكريم أغناماً له خالصة سائغة؛ وبعد ذلك تحرّكت في صدره نشوة الحنين إلى الوطن، ونزَعت نفسه إليه، ولجّ به الشوق والهيام:

بـلادٌ أَلِفْـنَـاهـا علـى كـل حـالـة ... وقد يُؤْلَفُ الشيءُ الذي ليس بالحسن
وتُـسْتعذَبُ الأرضُ التي لا هوى بها ... ولا مـاؤُهـا عـذبٌ ولكنهـا وطـن

جمع موسى أشتاتَ متاعِه، وهيأ رَحْله، واستعدَّ ليذهب مع زوجه إلى مصر؛ فودّعا الشيخَ وداعاً حسناً، ودعا لهما بالتوفيق والسَّداد، ثم سارا نحو الجنوب، حتى طور سيناء[١]؛ وهناك ضلَّ موسى الطريق، فحار في أمره، والْتَوى عليه قصدُه، ولكنّ عنايةَ الله لاحظته، فلم يَخْبُ ضياؤه، ولم ينطفيء رجاؤه.

وإذا العنـايـة لاحظتـك عيـونُهـا ... نَـمْ فـالمخـاوفُ كلُّهـنَّ أمـان

سار موسى غير بعيد، فأبصر من الجهة التي تلي الطور ناراً، فحطّ رحاله، وأسرع وحده إلى النار بعد أن قال لأهله: ﴿ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ[٢] نَارًا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ[٣] مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾[٤]﴾[٥].

في شاطىء الوادي الأيمن، في البقعة المباركة من الشجرة، في تلك الليلة المسفرة الضحكة، بَسمَ الزمان لنبي الله الكريم، فنودي: ﴿أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾﴾[٦] فكانت بدء نبوّته، إذ خصه الله بكرامته، وبعثه برسالته، وهناك سمع نداء الله الكريم: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾﴾[٧] فعجزت قدرتُه البشريةُ أن تسموَ إلى سِرِّ الإبداع في السؤال الكريم، فأجاب كما يجيب غيره من الناس: ﴿هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُاْ

(١) الطور في كلام العرب: الجبل. وبالقرب من مصر عند موضع يسمى مدين جبل يسمى الطور. وبلسان النبط: كل جبل يقال له طور فإذا كان عليه نبت وشجر قيل طور سيناء. والطور: جبل بعينه مطل على طبرية.
(٢) آنس: أبصر من بعيد.
(٣) الجذوة: قطعة وشعلة.
(٤) تصطلون: تستدفئون.
(٥) سورة القصص، الآية: ٢٩.
(٦) سورة القصص، الآية: ٣٠.
(٧) سورة طه، الآية: ١٧.

عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾﴾[١]، ظناً أن المقصودَ أن يذكر خصائص العصا، ومنافع العصا... تسامت قدرة الله، وتعالى سبحانه علوًّا كبيراً، فلم يكن السؤالُ إلا تمهيداً لتبيانٍ ومقدّمة لإعلانٍ!

سأل الله عن حقيقة العصا؛ حتى إذا رأى موسى بعد ذلك فيها خوارق، واستبان عندها معجزات، على أن في ذلك آيات بينات، وحُجَجاً[٢] صادقات، خَصه بها رب السموات، تمييزاً لرسالته وتقوية لدعوته.

فكم طابت به للحق نفس بحبْل الله تعتصمُ اعتصاماً

أمِرَ موسى أن يلقي عصاه فألقاها، فإذا هي حيَّة تسعى؛ نمَت وعظمت حتى غَدَت في جَلادة الثعبان، وضخامة الجان[٣]، لمحها موسى فخاف وهرب، فسمع نداء العليِّ العظيم: ﴿لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ ﴿١٠﴾﴾[٤].

حقّت نبوّة موسى، واطمأنت نفسه لنداء الله الكريم، وقرّت عينُه بنور الحق الواضح، فتَوَجّهُ ربُّه بمعجزة أخرى، إذ أمره فأدخل يده في جيبه[٥]، فإذا هي بيضاءُ من غير سُوء.

كانت هاتان المعجزتان لموسى نبي الله الكريم أمراً له ما بعده، جعلهما الله تـثبيتاً لقلبه، وتمكيناً لرسالته بين فرعون وقومه، وتهيئة للمناداة بالحق، فرفع صوتَه عالياً، وشهر سيفَه قاطعاً، ليمزق به حجبَ الزيغ والضلال.

* * *

موسى الرسول

عاش فرعون وأعوانه في بلاد النيل، يحكمون القِبْط وبني إسرائيل، ويفسدون في

(١) سورة طه، الآية: ١٨.
(٢) الحُجَج جمع حُجة: الدليل والبرهان.
(٣) الجان: ضرب من الحيات أكحل العينين يضرب إلى الصفرة.
(٤) سورة النمل، الآية: ١٠.
(٥) جيب القميص ونحوه: ما يدخل منه الرأس عند لبسه.

الأرض ظلماً واستكباراً، ويتخذون من نفوسهم أرباباً، مصورين من طبيعتهم البشرية الناقصة آلهةً يفرضون على السوقَةِ عبادتها من دون الله، ثم هم بعدُ قد أنزلوا الخسفَ ببني إسرائيل، وساموهم سوء العذاب، وأتعبوهم في العمل، وأطفئوا أمامهم سُرُج الأمل، فكانوا تحت أيديهم من سقط المتاع.

وأوغلوا في شهواتهم، وانصرفوا عن نور الإيمان، وانحسرت نواظرهُم عن سُبل الهداية، فحادوا عن الطريق المستقيم.

وقـومٌ فـي الضـلالـة قـد تهـاوَوْا أليسـوا بـالـرسـالـةِ يُـرحمـونـا؟

إذن فلتفِضْ رحمةُ الله، ولتتفجر ينابيعُ عدله وكرمه، وليكن أرحمَ بهؤلاء القساة الجفاةِ من أنفسهم، فيهيء لهم مَدارج النور، ويفسح أمامهم طريق الهداية، وَيُنيرَ مفاوِز[١] الظلمات.

نادى الله مُوسى: أن لديك برهانان من ربّك إلى فرعون ومَلئِه، ويعزز الله بهما كلمتَك، ويُعلي حُجَّتك، فاذهب إلى هؤلاء حتى تخرجهم من الظلمات إلى النور، وترفَع عَلماً يخفق في بلاد النيل، فينبلج نور الرشاد، ويتوارى غَلَسُ[٢] الضلال.

سمع موسى دعوة الله، وتهيأ لتلبية النداءُ الكريم؛ وهو وإن يكن ربط الله بالإيمان قلبَه، ووثق بالبراهين دعوته؛ فأراه حجتين بهما يتقوّى ويَشْتدّ، ويُساجل ويناضل، ويعزِّز كلمة الله أمام فرعون وقومه ـ إن يكن له كلُّ ذلك فإنّ لدى موسى ثأراً قديماً لفرعون، فهم يطلبونه منذ أمَد، وهو قد أمعن في الهرب، وفارق الأهل والوطن، إنجاءً لنفسه، وطلباً للسلامة من أقرب الأبواب. وهو كذلك وإنْ جاشت في نفسه نزعةُ الحنين إلى الوطن، واختلجت في فؤاده عواملُ الشوق والشجَن[٣]، لا يزال يجد أمام الأمل سُدّة[٤]، فيغض الطّرف عن هذا المطلب البعيد المنال، أمَا وقد دعاه الله وهيأه لرسالته؛ فقد آن له أن يتقدّم حيث أحجم، وأن تنبعث آماله حرّة طليقة بعد أن حبسها وحال دونها الخوف والحرمان.

---

(١) مفاوز جمع مفازة: المهلكة.
(٢) الفلس: ظلمة آخر الليل.
(٣) الشجن: الهم والحزن.
(٤) السدة: باب الدار.

فاضت الضراعةُ من قلب موسى إلى ربه، فقال: ﴿رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾﴾[1]، قال قَوْلته ليطمئنَ قلبه، وليشرف قدرُهُ، ويعظم جاهه، فينفحه ربه بقول كريم، يُنير في قلبه مصابيحَ الرجاء، ويفسح أمامه مسالك الأمل، ويُثلج خاطرَه، ويهدِّىء روعه، ويؤمِّنَ نفسه.

أُمِرَ موسى أن يذهبَ إلى فرعون؛ فتهيَّب الموقف، واستعظم الأمر، وهو الذي لا يكاد يُبين عن آيات الهدى، ودلائل الحق، لأنها فياضة زاخرة، تمتلىء بها مشاعره، وتجيش بها خواطره، وتملك عليه عَقْله وقلبه، وهو لا يملك أن يكون قويَّ التعبير، رصين الحجة، مُفَوَّه المنطق، سَرِيّ[2] البيان، لأن شأنه شأنٌ خطير، وأمرَه أمر كبير؛ فدعا ربه فقال: ربِّ اشرحْ لي صَدْرِي، حتى ينفسحَ لتحمُّل أعباء هذا الأمر العظيم، ويَسِّر لي أمري برفع الموانع والصعاب، واحْلُلْ عُقْدَةً من لساني أكنْ ناصعَ البيان، سديد البرهان، حتى يَنفذَ بلاغي إلى نفوسهم، ويتسرب إلى قلوبهم، واجعل لي شريكاً وزيراً[3] من أهلي، هو هارون أخي، أشْدُد به أزْرِي، وَأشْرِكه في أمري.

أجاب الله دعاءَ نبيِّه الكريم، تدعيماً للدعوة، وتكريماً لرسوله، وتنبيهاً لشأن الحق، فألهم هارون ـ وقد كان بمصر ـ أن يذهبَ إلى حيث يقيم موسى أخوه، ليشْرِكه في أمره، ويحمل معه أعباء هذا الأمر الخطير، فلبى هارون داعي الحق، وسار فقابل أخاهُ بجانب الطور الأيمن.

إذن قد اطمأن موسى، وتقوَّى ظهره، وآتاهُ الله سُؤْله.

أوحى الله إلى مُوسى وأخيه: أن اذهبا إلى فرعون، فقولا له قَوْلاً ليناً، أرْفَقُ بنفسه، وآلفَ لقلبه، عسى أن تلينَ قسوته، وتخشعَ سطْوَتهُ، فلا تحمله حماقتُه على أنْ يسطوَ عليكما؛ وَلْتَسُدَّا أمامه منافذ التمحُّل والاعتذار؛ وعسى أن تكون دعوتكما ليِّنَةً رقيقة، فلا تفجعه في سلطته، ولا تصدمه في عزته.

ومَنْ أولى من رب السماء والأرض بأن يعلِّم الأدب، ورقة العبارة، وسمُوّ

(١) سورة القصص، الآية: ٣٣.
(٢) السريُّ: الشريف.
(٣) الوزير: خاصة الملك الذي يحمل ثقله ويعينه برأيه.

الحس، وحُسن المعاملة؟ ومَنْ أحْسَنُ قَوْلاً ممَّنْ دعا إلى الله وعَمِلَ صالحاً؟

أليستْ لفرعَوْن على موسى حقوق التربية؟ فمن حقه عليه ملاينةٌ في القول، ورقة في الأسلوب.

فأوحى الله إليه: يا موسى: اذهب أنت وأخوك بآياتي إلى فرعون وقَوْمه، وتدرَّجا معه في الدعوة، فقولاً: إنا رسُولا ربِّك، وادعُوَاه ليخلِّصَ بني إسرائيل مما هم فيه من ظلم وإيلام[١].

ذهب موسى وأخوه إلى مصر، فأتيا فرعون، فاستهان بهما، واستنكر خَطْبُهما، فقال: حتى أنت يامُوسى! ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا[٢] وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾﴾[٣].

فقال مُوسى: أتمُنُّ بتربيتي لديك وَليداً فتحسبها نعمة؟ أليس منشؤها ظُلمك واستعبادك لبني إسرائيل؟

فانطلق فرعون قائلاً: وكذلك فعلتَ فَعْلَتك التي فعلت وأنت من الجاحدين بنعمتنا ودحض مُوسى حُجَّته، وردَّ دعْوَته، فقال: بل فعلتُها إذاً وأنا من الضالين، ، ولما خِفْتُ بطشكم فررت منكم، فأصابتني نعمةُ الله ورحمته، فَوَهب لي علماً وحكمة، وجعلني من المرسلين.

حينئذٍ استغلق باب النقاش أمام فرعون، فعمد[٤] إلى طريق آخر، واهماً أن به نَصَفَتَهُ، وفيه سلامته، فقال: وما رب العالمين؟! فقال موسى: إن أيقنت حقيقة الأشياء وأدركتَ وجودها وآثارها، فإلهي ربُّهَا، ربُّ السموات والأرض وما بينهما.

فتميَّز[٥] فرعونُ غيظاً، وراح يُثير سخيمَةَ[٦] مَنْ حوله، ويبعث دهشتهم وعجبهم واستنكارهم، فقال: ألا تسمعونَ؟! أسألهُ عن حقيقة ربه فيذكر لي أفعاله!!

---

(١) آلمه إيلاماً: أوجعه.
(٢) سورة الشعراء، الآية: ١٨.
(٣) وليداً: صغيراً قريباً من الولادة بعد الفطام.
(٤) عمد: قصد.
(٥) تميَّز من الغيظ: تقطَّع.
(٦) السخيمة: الحقد والضغينة.

فقال موسى: ربِّي ربكم ورب آبائكم الأولين ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾﴾[١].

فثار فرعون، واضطربت نفسه، ولجّ في غضبه، وزاد غيظه، وعجزت حُجَّته فلجأ إلى حيلة المُحْنَق الموتور، وعمد إلى قُوَّته، وقال: ﴿لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾﴾[٢].

لم يُبَالِ مُوسى، واطمأنَّ لدعْوَته، وانبعث لسانه بدفء الأمل، فقال: ﴿أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾﴾[٣] حجةٍ دامغة، ومعجزة قاطعة، تُزِيل عنك الريب والشكوك؟

فقال فرعون: إذن فأْت بها إن كنت من الصادقين.

* * *

معجزات موسى

كان موسى قَوِيَّ الظهر مسدَّد الخطا، يستمدُّ العَوْن والتوفيقَ من الله العليّ الكبير، وكان السحر فنًّا ذاع في بني مصر أمرُه، واشتهر شأنه، فظهر منهم الساحر الذي يَخْلِبُ العقول، ويسترقُّ الفؤاد، ويلعبُ بالألباب لَعِبَ النكْباء[٤] بالعود، برعوا في هذا الفن وأتقنوه، فليس يُباريهم سابق، ولا يبلغ شأوهم لاحق.

ومن هذه الناحية وحدها شاءت إرادة الله أن يُعْجِز القَوْم، وأن يقفهُمْ دهشين ذاهلين، إذ تُصَوَّب سهامهم إلى نحوُرهم، فلا يستطيعون ردَّها، ولا هم يُنْظَرون.

تلك حكمةٌ أرادها الله، فأجرى المعجزة على يد نبيه مُوسى، تحاكي ذلك النوع الذي برع فيه القَوْم، حتى يُفْرِغوا كل كنانهم[٥]، ويستنفدوا كل جهودهم، فإذا عجزوا في محطّ سَبقهم، وغاية براعتهم فهم عن غيره من الأعمال أعجز وحينئذٍ فكلمةُ الله هي العليا، وكلمتهم هي السفلى، والله لا يهدي كيد الخائنين.

---

(١) سورة الشعراء، الآية: ٢٨.
(٢) سورة الشعراء، الآية: ٢٩.
(٣) سورة الشعراء، الآية: ٣٠.
(٤) النكباء: ريح انحرفت ووقعت بين ريحين الصبا والشمال.
(٥) الكِنانة: جعبة صغيرة من جلد توضع فيها السهام.

ألقى موسى عصاه التي أودعها الله القُوَّة الخارقة، فإذا هي ثعبانٌ مبين! شُدِه فرعون، وتملكه مزيج من الكبرياء والحيرة، ثم قال: هل من غيرها؟ ظانًّا بأنّ ذلك نهاية الشوط، وأن موسى لا بدّ عاجز؛ ولكن الرسول أدخل يدهُ في جيبه ثم نزعها، فإذا شعاع ينبعث منها يكادُ سَنَا[١] بَرْقه يأخذُ بالأبصار، ويذيعُ وينتشرُ حتى ليكاد يسدّ الأفق.

بعد ذلك ضاقت مسالكُ القَوْم أمام فرعون، وغَشِيَه هَمٌّ واكتئاب، ولجّ به حرصُهُ على مُلكه وجَبَرُوته، وبهرهُ سلطان المعجزة، فأنزلُه من عَليائه، وصغّر شأنه في عين نفسه، فنسي أنه ربُّهم الأعلى، وأنه ما علم لهم من إلٰهٍ غيْرَه! ثم عمد إلى التمسح في أذيال قَوْمه، ومداهنتهم[٢]، فأشركهم في الأمر، وتبادل معهم المشورة والرأي، وتقدم لمؤامرتهم، وتنفيرهم من موسى، مُلبساً الباطل ثوب الحق، والخديعة والتدليس[٣] ثوب الصراحة والحقيقة، فقال: يا قوم، هذان ساحران يريدان أن يخرجاكم من أرضكم بسحرِهما، فما ترون؟ فقال أنصاره وحواشيه احبْسهما وابعثْ رجالَك في المدائن يأتوك بكل ساحرٍ عليم.

صادف هذا الرأي هَوًى في نفس فرعون، وهو الذي يتعلّق بخيوطٍ واهية، ويستمسك بالأمل الكاذب، ويستند على أوهن أساس، لعلَّ فيه الخلاص والنجاة.

فجدّ في جمع السَّحَرةِ من كل مكان، كلُّ ذلك والهواجس والوساوس تتنازع نفسه، خوفاً على صَوْلته[٤]، وفرَقاً[٥] على دولته؛ إذ قال لموسى في نكران ودَهش: ﴿أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَىٰ ﴿٥٧﴾﴾[٦].

ما بال فرعون اضطرب وجزع، وتقطعت نفسه وهلع! أليس هو الإلٰه المتجبر؟! أو ليست له قدرة وكرامة؟! إنه أمامَ تلك القُوَّة الخارقة التي أجراها ربّ الأرباب على يد بشر يأكل الطعام ويمشي في الأسواق!

---

(١) سنا البرق وغيره: أضاء.
(٢) داهن مداهنة: أظهر خلاف ما أضمر.
(٣) التدليس: الإخفاء وإظهار عكس الحقيقة.
(٤) الصولة: السطوة.
(٥) فَرِقَ فرقاً: جزع واشتد خوفه.
(٦) سورة طه، الآية: ٥٧.

قال فرعون لموسى: ﴿فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنتَ﴾[١]. قال موسى: موعدكم يوم العيد، يوم اجتماع الناس وزينتهم، حتى يشيع الحق، وينبلجَ انبلاجَ النهار.

جدّ فرعون واجتهد، وجمع السَّحرة، وأتى بهم في ذلك الزمان وهذا المكان، تتمشى في نفسه بقيةٌ من الأمل، ورغبة شديدة مُلِحَّة من الحرص والسلطة، يدفعانه دفعاً إلى مساجلة موسى والقضاء على دعواه، ولكن هيهات أن يدنس الشمسَ غبارٌ ثائر، أو يحط من قدر العدالة سلطان جائرٌ:

كناطحٍ صخرةً يوماً ليوهنها فلم يَضِرْها وأوْهَى[٢] قرنَهُ الوعلُ[٣]

تلفَّتَ موسى فوجد حَشْداً هائلاً من السَّحَرَة، فقال لهم: الويل لكم إن افتريتم الكذب على الله، فدعوتم معجزاتِه سحراً، ولم تصارحوا فرعون بالنور الساطع، والحق القاطع، فتظهروا له ما بين سحركم وإعجازي، وَتُفَرِّقُوا بين باطلكم وحقي، من احتال منكم ليبُطِلَ حقًّا، أو يُحق باطلاً فقد خاب، وباء بالخسران المُبين.

كان كلامُ موسى نداءَ الحق رنَّ في آذان الساحرين، فأفاقهم من غشية الضلال، وأزال عن أفئدتهم حَلك المحال[٤]، وفتق أغشيةَ قلوبهم لتُصِيخ لدعوة الحق، ولتستبين طريق الرشاد.

ائتمر السحرةُ بأمر فرعون، لم يتخلف واحد منهم، فإذا بهم آلاف، مع كل واحد منهم حَبْلٌ وعصا، مقبلين إقبال رجل واحد، ومشمّرين عن سواعدهم، ليكون ذلك أدعى إلى تسرب الخوف إلى موسى وأخيه، وبثَّ المهابة في نفوس الرائين.

نادَى فرعون في قومه، حاثًّا لهم على الإسراع والبِدار[٥] ليشهدوا ذلك الحفل العظيم، ساعةَ الضحى من يوم العيد، يوم يتبارى القِرْنان، ويتساجل[٦] الخصمان.

---

(١) سورة طه، الآية: ٥٨.
(٢) وهن: ضعف.
(٣) الوعل: تيس الجبل وهو جنس من المعز الجبلية له قرنان قويان منحنيان كسيفين أحدبين.
(٤) المُحال من الكلام: ما عُدِل به عن وجهه.
(٥) بادر بداراً: أسرع.
(٦) تساجلوا: تباروا.

جاء الناس مدفوعين بالرجاء في نصرة الساحرين، لِما رسخ في نفوسهم من الضلالة، وران على قلوبهم من الجهالة، فسلبهم سلامة التقدير، وصحة التصوير.

أقبل السحرة مُدِلِّينَ بعلمهم، مزهُوِّين بغرورهم، وكيف لا يُدِلون ويُعْجَبُونَ وهم فوارسُ الميدان، وجياد الرهان، ومناطُ الأمل، ومحطّ الرجاء؟

قالوا لفرعون: أَلَنَا أَجْرٌ إن غَلَبْنا؟ فقال: لكم أَجْرٌ وقُرْبى! تنعمون في حِمَاي، وتسعدون بجواري، وتنزلون موارد الرفاغة[١] والترف والنعيم؛ لأنكم تشدّون أزرِي، وتقَوُّون ظهري.

فاطمأنّ السَّحرة لهذا، ودارت بروؤسِهم كئوس الأمل؛ فأقبلوا مدفوعين، ثم قالوا: يا موسى، إمَّا أن تُلْقِي، وإمَّا أن نكون أوّلَ الملْقين.

فلم يبال موسى سحرهم، واستخفّ بخَطْبهم، وأذِنَ لهم بأن يُلقوا حبالهم وعصيَّهم، حتى يستنفدوا أقصى وسعهم، ويفرغوا غاية جهدهم، ثم يُظْهر الله سلطانه، فيقذف بالحق على الباطل فَيَدْمغه.

تقَدَّم السَّحرة وألْقَوْا ما في أيديهم؛ فَخُيِّل لموسى أنها حَيَّاتٌ على الأرض تسعى، ولكنه وَهمٌ تسلل إلى خلجات نفسه حذراً وخوفاً أن يُؤْخَذَ الناس بهذا الظاهر المموّه، والباطل المشوّه؛ فينصرفوا عن دعوته مدبرين، ولكن حماه الله ورعاه، فقال: لا تَخَفْ إنك أنت الأعْلَى، ولا تحفل[٢] بكثرة هذه الأجرام وعظمها؛ فإن العُوَيدة التي في يدك أخطرُ شأناً وأعظَمُ أثراً، فألِقهَا فإنها بقدرة الله تبتلع ما افتعلوا وزوّرُوا، ومَوَّهُوا وضللوا، فما كلُّ ذاك إلا كيد ساحر، ولا يُفْلحُ السَّاحِرُ حيثُ أتىٰ.

هدأت حَصَاةُ موسى، وألقى عصاه، فإذا هي تَلْقَف[٣] ما يأفِكُون[٤]، فإذا السحرةُ يلمسون الحقيقة الرائعة، ويتبينون الرُّشْدَ من الضلال، والحقّ من المحال، فإذا هم يخرُّون ساجدين، توبةً عما صنعُوا، وخشوعاً لهيبة الحقّ، وإكباراً لذلك الأمر الخطير.

---

(١) الرفاغة: سعة العيش وخصبه.
(٢) حفل الشيء: عني به وبالى.
(٣) لقف الطعام: بلعه، تلقف: تبتلع.
(٤) يأفكون: يكذبون ويفترون.

غلت مراجلُ[١] الحقد والحفيظة في صدر فرعون، واحتدم غيظهُ لتلك المفاجأة الغريبة التي فجأته، مستطيرة الشرر، شديدة الضرر، على حين كان يرجو من ورائها تقوية لسلطانه، وتدعيماً لبهتانه، فإذا هي عاصفةٌ هوجاء تُقَوِّض[٢] ذلك العرش الذي أسِّسَ على الزور والبهتان.

لم يجد فرعون في كنانته إلا أن يُشْبِعَ نَهْم غيظه، ويستر مرارة خَجَله، فقال: أتؤمنون له، وتخضعون لحكمة قبل أن آذن لكم؟ أليس في ذلك اتفاق مقرر، ورأي مدبَّر؟

حقاً إنه لأستاذكم، وكبيركم الذي علمكم السحر؛ فاتفقتم معه على فعلكم، أما وقد أقدمتم على ذلك، وخرجتم على حدود طاعتي، ونقضتم حبال عهدي، فلأقَطِّعَنَّ أيْدِيَكُم وأرجلكم من خلاف، ولأصلبنَّكم في جذوع النخل، عقاباً لكم، وتمثيلاً بكم، لأنكم كفرتم بنعمتي، ونقضتم ميثاقي، ولتُعَرِّفنكم أيامُ الزمن قوة بأسي، وشدّة عذابي.

ولكنَّ قوة الإيمان، وفيض النبوَّة ربطا على قلوب هؤلاء المؤمنين؛ فأزال الله عن قلوبهم غشية الباطل وغمرة البهتان، ودرجوا قُدْماً نحو الصراط المستقيم؛ فقالوا لفرعون: ليس في سبيلك خير، ولا في رضاك أجر، فلن نختارك على ما جاءنا من نور ساطع وحق قاطع، فأوغلْ في وعيدك، وأكثِرْ من تهديدك، فما أنت إلا غَوِيٌّ مُضِل مُبين: ﴿إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾﴾[٣].

* * *

عناد فرعون

شُدِهَ فرعون لما رأى من سحر موسى ـ كما يسميه ـ وانطلق تتنازعه عاطفتان جامحتان: أقواهما الإبقاء على ملْكه، ومجاهدة موسى حتى تنجلي غاشية ظلامه، وتنكشف سحابة غمتّه، فيستتِبّ لفرعون المصير، وكيف لا يناضل عُتُلٌّ[٤] جبار في سبيل هذه العزة الشامخة والثروة العريضة؟ إنه لمضطرّ تحت نزعات هذه النفس الكافرة أن يدافع

(١) مراجل جمع مرجل: القدر من الطين المطبوخ أو النحاس ويقال جاشت مراجله: إشتد غضبه.
(٢) قاض الجدار: تهدم وانهال.
(٣) سورة طه، الآية: ٧٣.
(٤) العُتل: الشديد من كل شيء، ويقال: رجل عتل: جاف غليظ.

ويجالد حتى يَدْحَر[١] ذلك الخارج على سلطانه، أصرَّ فرعونُ على عناده، وظاهرهُ الملأ من قومه، فقالوا: ﴿أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ﴾[٢]، فتغالَى في بطشه وعُنْفوانه، واستطار شرره وبهتانه، فقال: إنا سنقتّل أبناءهم ونستحيي[٣] نساءهم. ثم راح ينزل بهم صنوف الظلم وألوان الأذى؛ فضجُّوا لاجئين إلى موسى، ليحميهم من أذى الكافر الجبار، وقالوا: يا موسى، لقد أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا. فسكَّن الرسول ثورتهم، وهَدَّأ روعهم، ومنَّاهم الخير والنجاة قائلاً لهم. ﴿ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾﴾[٤].

قال موسى هذا، واستمرَّ في دعوته يمهِّد لقومه سبيل النجاة، ويتجهُ إلى ربه بقلب ثابت، وإيمان موثّق، واطمئنان موفور.

أما فرعون فقد خلص إلى ملأ من قومه يأتمرون بموسى ليقتلوه؛ فذلك أقربُ طريقٍ أمامهم، وأدنى السُّبُل لبقاء ملكهم، بعد أن أعيَتْهم الْحِيَل، وسُدَّت أمامهم منافذُ الخلاص، وبينما هم في أخْذٍ ورَدّ، يقلبون أوجه الرأي، ويجيلون الفكر في الإقدام على جريمة القتل، إذ دفعت المروءة والشجاعة رجلاً أنار الله بصيرتَه، وكشف له سبيل الرشد والإيمان، فدافع عن موسى أشدّ الدفاع، وناضل عنه وجادل، وبيّن لهم سوء أمرهم، وعاقبة تدبيرهم، وفنَّدَ حُججهم، وزيّفَ ضلالهم، وطفق يضرب المثل، ويتقوى بالحجج. فقال: يا قوم ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾﴾[٥].

ثم طفق مُؤْمِنُ آل فرعون يذكّرهم ببأس الله وبطشه، فقال: ﴿يَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾[٦] مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا

---

(١) دحره دحوراً: دفعه وأبعده وطرده.
(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٢٧.
(٣) نستحيي: نستبقيهم أحياء.
(٤) سورة الأعراف، الآية: ١٢٨.
(٥) سورة غافر، الآية: ٢٨.
(٦) الأحزاب: أي يوم حزب بعد حزب.

لِّلْعِبَادِ ﴿٣١﴾ وَيَٰقَوْمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾[1] يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾[2].

ولكن القوم ـ على الرغم من قوة عارضته ـ قاوموه وكذّبوه، ليلجئوه إلى صفّهم ورأيهم، فقال: ﴿وَيَٰقَوْمِ مَا لِىٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِىٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِى لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ ﴿٤٢﴾ لَا جَرَمَ[3] أَنَّمَا تَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَلَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٤٣﴾ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ ۚ وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٤٤﴾[4].

ضاق القومُ ذرعاً بهذا الرجل الذي فجأهم برأيه، وسفّه أحلامهم بهديه؛ فناوءوه[5] وسفّهوه، وهَمُّوا به ليقتلوه، فوقاه الله سيّئات ما مكَرُوا، وحاق بآل فرعون سوء العذاب.

استمرّ موسى في دعوته، لا يَثْنيه وَعِيدٌ، ولا يُخيفه تهديد، يدعو فرعون إلى الإيمان بربه، والرُّجْعَى إلى خالق الأرض والسموات، وأن يطلق معه بني إسرائيل، ولكنَّ هذا كان شديداً كلَّ الشِّدة على ذلك الطاغية الجبار؛ فاشتطَّ في غوايته، وظل في جَهالته، وجمع أشتات الزائغين من قومه الذين ألفُوا الذِّلة، وارْتَضَوْا عيشَ الهوان والاستعباد، جَمَعهم يريد أن يبهرهم بالقُوَّة، ويثبّتهم على الكفر والمذلة، ونادى في قومه، قال: ﴿يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾[6].

وهؤلاء هم أذنابُ شَرّه، وعُمُدُ زَيغِه وظُلْمِه، قد أطاعوه، إنهم كانوا قوماً فاسقين.

---

(١) يوم التناد: يوم القيامة.
(٢) سورة غافر، من الآية: ٣٠ إلى الآية: ٣٤.
(٣) لا جَرَم: حقاً.
(٤) سورة غافر، من الآية: ٤١ إلى الآية: ٤٣.
(٥) ناوؤوه: عادوه.
(٦) سورة الزخرف، من الآية: ٥١ إلى الآية: ٥٣.

لم يَبْقَ في قَوْس الصبر مَنْزَعٌ، ولا لحجة المبين موقع، بعد أن عتا فرعون عتوًّا كبيراً، وسَدَّ مسالك القول ببهتانه، وأنكَر الشمس في وضح النهار، بل إنه قد استمرَّ يذيق بني إسرائيل أنواع المذلة وصنوف الهوان؛ فأمر الله تعالى موسى أن يُعْلن فرعونَ وقومَه بأن الله لا بُدَّ مُذِيقُهم جزاءَ كفرهم وحبسهم بني إسرائيل.

فأخذهم الله بنقصٍ في الأموال والأنفس والثمرات، فنضب معينُ النيل، وغاض ماؤه، وقل غناؤه، وقصَّرَ عن إرواءِ أرضهم؛ فنقصت ثمراتهم، وَذَوَى عُودُ خيرهم؛ ثم أغْرقهم الطوفانُ من مطر السماء، فأضرَّ بما بقي من الزرع والضرع، ثم زحف عليهم جرادٌ أكل الثمار والأزهار، واستولى عليهم القُمَّل، فأقضَّ مضاجعهم، وأقلق رقادهم؛ وابتُلوا بالضفادع، فنغَّصَت عيشهم، واحتشد جمعها في طعامهم وشرابهم وبين ملابسهم، وسلّط عليهم الرُّعَافُ من آنافهم، ثم محق الله أموالهم وأهلكها جزاء خطيئاتهم وكفْرِهم ﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ[1] قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾﴾[2].

كشف الله عنهم هذا البلاء، ليمهد لهم سبيلَ الخلاص مما نزل بهم، وليقَوِّيَ بحكمته الحجة والدليل عليهم؛ ولكنهم نكثوا عهد الله فكانوا من الخائنين.

* * *

خروج بني إسرائيل من مصر

أفصحَ النهار لذي عينين، فتبين بنو إسرائيل الغيَّ من الرَّشاد، وانحازوا لرسول الله الكريم، يلتمسون لديه الرَّحمة والهداية، وهم الذين ضُرِبَتْ عليهم الذِّلةُ والمسكَنة، وَسِيمُوا سوء العذاب؛ فعاشوا عِيشة البلاء، واصطبروا عَلَى اللَّأْوَاءِ[3].

وكيف لا تتفتح بصائرهم، ولا تنفجر ينابيع إيمانهم، وقد لمسوا آية الحق ناصعةً مشرقة، فقرَّت بها عُيونهم، واطمأنت إلى مهادِها جنوبُهم، فلم يَحفلوا بوَعِيد فرعون،

---

(١) الرجز: العذاب.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٣٤.

(٣) اللأواء: الضر والشدة.

ولم يأبَهُوا لزْمجرته وتهديده، والتمسوا الفِرَار من أرض مصر، طلباً للسلامة، وبُـعْداً عن القوم الظالمين!

سار بهم موسى أول الليل إلى الأرض المقَدَّسة، وقد سهَّل الله إليها طريقهم فساروا حَثِيثاً، يدفعهم الخوف، ويعصمهم الإيمان، حتى قطعوا رقعة اليابسة المصرية، وإذا بهم أمام بحر لُجِّيٍّ[١] يقف سداً منيعاً دون غايتهم، وحائلاً دون أمنيتهم، فسَاوَرَهم القلقُ، واستولى عليهم الجزعُ، وتوزّع نفوسهم الرَّوْعُ والفَزَع...

أليسوا هم المطلوبون لفرعَوْن وجنوده؟! وهو الذي يجدُّ في السير ويمعن في الطلب حتى ليوشك أن يقترب منهم، لأنهم ـ على زعمه ـ عبيد آبقون[٢]، وأتباعٌ مارقون، وكان قد جَيَّشَ جيشه، وحشد خيله وَرَجِله، وسار وراء موسى ومَنْ تبعه حتى صار منهم قاب[٣] قوسين أو أدنى؟!

هاج بنو إسرائيل، وتقطعُتْ نفوسهم همًّا وحسرة، أليس الموتُ قد كاد يُدْرِكهم، وحبائلُ فرعَوْن قد اقتربت لتقنصهم؟ هنا سُمِعَ صوتٌ يَجْأرُ كما تنبعث الهيْعَة[٤] الصاخبة وسط المفازة المترامية، فيه عُتْبٌ، وفيه لوم، وفيه استنجاد، وفيه يأس، وكان صاحبُ الصوت يُوشَع بن نون، من قوم موسى.

قال: يا كليمَ الله، أين تدبيرُك؟ ها قد دهمتنا غوائلُ القَدَر، فالبحر أمامنا والعدوّ وراءنا، وليس لنا من الموت محيص ولا مفر. فقال موسى: لقد أُمِرْتُ بالبحر، ولعلي أُمَر الآن بما أصنع.

فسَرَتْ في نفوس القوم ساريةٌ من الأمل، ولكنه لا يلبث أن يمدّ شعاعه، حتى تطفئه عواصفُ اليأس والقنوط، ويشيع في نفوسهم ثورة يحبسها ما تبقىٰ في قلوبهم من رجاء، وما يعلِّلهم به نبيُّهم من فرج ورخاء؛ إذن فليستسلموا لقضاء الله، والله لا بدّ راحمهم وعاصمهم من فَتْك الظالمين.

---

(١) اللُّجي: المنسوب إلى اللُّجَّة وهي معظم البحر وتردد أمواجه.
(٢) أبق: هرب فهو آبق.
(٣) القاب من القوس: ما بين المقبض وطرف القوس ويقال: بينهما قاب قوس: كناية عن القرب.
(٤) الهيعة: الصوت المفزع.

أوحى الله إلى موسى: أن اَضْرِبْ بِعَصَاكَ البَحْرَ، فضربه، فانجابت دياجيرُ[١] الظلام... وانحسَرَت طاغيات اليأس، وإذا اثنا عشر طريقاً لاثني عشر سِبْطاً[٢]، لكل سِبْطٍ طريق، وإذا الشمسُ والريح يهيِّئهما الله، فتجفُّ هذه الأرض، وتمهِّدُ تلك السُّبل، وإذا القوم يسيرون آمنين في رعاية الله الكبير المتعال، وإذا ربهم يؤمِّن رسولهم؛ إذ يقول: ﴿فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴿٧٧﴾﴾[٣].

إنسابَ الأسباط يُهْرَعون إلى برِّ الأمان والسلام، وقد قام الماء على جانبي كل طريق كالطَّوْدِ[٤] العظيم، حتى عَبروا سالمين.

استشرف القومُ بعيونهم، فأبصروا فرعونَ وجنودَه يتأهَّبون ليسلكوا في البحر مسالكَ بني إسرائيل التي عبروا منها، حتى يَلْحَقوا بهم، فينزلوا بهم أشد العذاب؛ وعاد القلق والاضطراب، بعد أن ظللتهم سحابة من الأمن، وتملكهم الخوف والإشفاق، خَشْيَةَ أن يمتد إليهم عُدْوَان فرعون، بعد أن يجوز البحر من حيث جازوه.

اتجهت القلوب، وتطلعت الأنظار نحو موسى حتى يكشفَ ربُّه عنهم هذا البلاء المحدق، الذي يكاد يَدْهَمهم من حيث لا يشعرون، حينئذٍ هَمَّ موسى ليدعُوَ البحر فيرجع إلى حاله، حتى يحول بينهم وبين فرعون، وليكون حاجزاً يحجز عنهم ذلك البطش الذي يلاحقهم في كل مكان وزمان.

لم يكد عزمُ موسى يختلج في فؤاده حتى أوحى الله إليه: أن اتْرُكِ البحر ساكناً على حاله، فلا تضرِبْه بعصاك فيعود إلى حاله، لأن الله لا يريد أن يجعل البحر حائلاً بينك وبينهم، فيرجعوا إلى ديارهم سالمين، بل سبقتْ كلمة الله في هؤلاء، فغَرّتهم المسالك التي سلكها بنو إسرائيل ومشَوْا فيها، فانطلق عليهم الماء فكانوا من المغرقين.

تلفت فرعون وجنوده، فإذا سُبُل البحر ممهدةٌ أمامهم فيها يسيرون ومنها إلى بني إسرائيل يصلون، فانتفخت أوداجُهم، وأعماهم غرورهم؛ وتاهوا في ضلال

---

(١) دياجير جمع ديجور: أي الظلمة.
(٢) السبط من اليهود: كالقبيلة من العرب.
(٣) سورة طه، الآية: ٧٧.
(٤) الطود: الجبل العظيم الذاهب حسوداً في الجو ويشبه به غيره من كل مرتفع أو عظيم أو راسخ.

الصلف[١] والإعجاب، فقال فرعون لجنوده: انظروا إلى البحر كيف انفلق طَوْعاً لأمري، وانصياعاً لإرادتي؛ حتى أُدْرِك هؤلاء الخارجين!!

وكأنها كانت معجزة لفرعون في نظر أصحابه الضالِّين، فتَقَوَّوْا بقُوَّته، واطْمَأنوا لنصرته، ثم اندفعوا إلى مسالك البحْرِ، وقد لجت بهم العجلة، طَلباً لبني إسرائيل، ولم يكادوا يصلون إلى عُرْضِه[٢] حتى انطبق عليهم، فأغْرقهم أجمعين، فصاروا مثلاً للآخرِين.

نسيَ فرعون علياءه ومَجْده، وأدرك الحقيقة التي طَالما خَفِيَتْ عليه، وأبصر فإذا هو عبْدٌ كليل الرأي، حقير الشأنِ، لا حَوْل له ولا قوَّة، فانجابت عنه تلك السحابة القائمة المظلمة، وتسَرَّب إلى قلبه شَعَاع من الحق المبين.

وقد بَهَرَت فما تخفى عَلَى أحَدٍ إلا عَلَـى أحـد لا يعْـرِفُ القَمَـرا

في هذا الوقت العصيب آمن فرْعَون، فقال: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴿٩٠﴾﴾[٣].

لم يقبَل الله مِحَالَ هذا الطاغية الجبار الذي أهلك الحرث والنسل؛ بل جازاه عَلَى شرِّ أعماله وبئسَ المصير.

انطبق البحْرُ، فَسُمع صَوْت انطباقه صاخباً شديداً، فسأل بنو إسرائيل موسى: ما هذه الضوضاء؟ فقال لهم: إن الله قد أهلك فرعَون ومن معه مغرقين فعاوَدَتهم غريزةُ تأصَّلت في نفوسهم، وباطل تمكَّن من قلوبهم، ووهمٌ تَسَلط عَلَى عقولهم؛ فقالوا: يا موسى؛ إن فرعَوْن لا يمُوت!! ألم تر كيف كان يلبث كذا من الأيام وكذا من الشهور، لا يحتاج إلى شيء مما يحتاج إليه بنو الإنسان؟!

قالوا هذا، ويغشى على أفئدتهم وهمٌ باطل، ولكن فليختلقوا القدرة والحوْل والإمكان والطَّوْل لفرعَوْن وليُمعنوا في دعاويهم الزائفة الكاسِدة؛ فهذه قدرة الله، وذلك حَوْلُ الله.

---

(١) صلفه صلفاً: أبغضه.

(٢) عرض البحر: وسطه.

(٣) سورة يونس، الآية: ٩٠.

أَمَرَ الله فألْقى البحر جُثة فرعَون عَلَى ساحله حتى لا يكُون في مواراة البحر إياها سبيل من سبل التقول لفرعَون؛ فربما قالوا: إنه يعيش في عالم آخر. وربما افتروا وربما كذبوا، فليخرس الله ألسنتهم ولْيَكْتُم أنفاسهم، ولينبذ البحْرُ هذا الجسد المحطم وذلك السلطان المهدَّم.

نظر بنوا إسرائيل دهشين ذاهلين مصرع هؤلاء الجبابرة العاتين. إذ أغرق الله فرعون وجنوده، ونجَّى فِرْعَون ببدنه، ليكُون آية لمن خَلفَه، آية ناطقة على تلك القدرة المعجزة، وذلك الإنعام الذي تفضل به رب العالمين.

* * *

مواعدة موسى

استقَرَّت عصا التسيار بموسى ومن معه، فأقاموا حيث واتاه المقام، ومن ثمَّ احتاجوا إلى منهاج يسيرون عليه، وشرع يركنون إليه، فسأل مُوسى ربه كتاباً به يهتدون، وإلى حكمه يرجعون، فيه من الأمر ما يأتونَ، ومن النهي ما يَذْرُون، حتى لا تتردَّى بهم أيام الزمان، ولا يخبِطون إلى أمور المعَاش والمَعاد خَبْطَ عَشْوَاء.

أمر الله موسى أن يتطهر، وأن يصوم ثلاثين يوماً، ثم يأتي إلى طور سيناء حتى يكلمه ربه، فيتلقى أمره في كتاب يكُون لهم المرجع والمآب.

اختار موسى من قومه سبعين رجُلاً، ثم ذهب لميقات[1] ربِّه، ولكنه تعجَّل فسبقهم إلى الطُّور، فوصل بعد ثلاثين ليلة، وقد تأخّرَ عنه المختارون من قَوْمه، حينئذٍ سُئلَ عن الأمرِ الذي بعثه على الإسراع والعجلة، فقال: هم أُولاءِ عَلَى أثَرِي، وعجلْتُ إليكَ رَبِّ لِتَرْضى. فأُمِرَ أن يتمّ ميقاتُ ربه أربعين ليلة.

وكان موسى قد ترك قومه، واستخلف عليهم أخاه خارون وزيراً، يقوم على شؤونهم، ويُصْلح أمورهم، ويَرْعَى أحوالهم، حتى يعود إليهم يحمل الأمانة الغالية، ويسعد بذلك الشرف الموعُود.

---

(١) الميقات: الوقت المضروب للفعل. و: الموعد الذي جعل له وقت ـ و: الموضع الذي جعل للشيء يفعل عنده.

سار موسى إلى طور سيناء، فكلمه ربُّه وناجاه، وقَرَّبه وأدناه، حتى سَرَت في نفسه رَوْعَه وهِزَّةٌ، أجَّجَت في فؤاده نار الشوق، وألهبت أوَار[١] الهيام واللهفة، فقال: رَبِّ أرِني أنظر إليك؛ ولِمَ لا يختلج في فؤاد موسى خاطرٌ يدفعه إلى أن يطلب رؤية ربه، وقد نعمَ بتلقي رسالته، وسَعدَ بالقرب من رعايته، ونال ما لم يَنَلْهُ قبله أحد من العالمين، أليس المأرَبُ شريفاً، والقصد كريماً؟!

وموسى نفسه هو الرسول الذي طالبه قومه، فقالوا: أرنا الله جَهْرةً؛ فلماذا لا يسألُ ربّه ذلك ليرى بنفسه أمْر الله في ذلك المطلب المرغوب، وليكُون حُكم الله حجةً قاطعة لهؤلاء الرَّاجين المُلْحِفين[٢]؟

قال ربُّه: لن تراني، ولكن انظُرْ إلى الجبل؛ فإن استقر مكانه فسوف تراني. تلفَّتَ موسى فإذا الجبل قد دُكَّ، وغارَ في الأرض وساخ، فارتاع لهَوْل ذلك الخطب الجلل والأمْر العظيم، فخر صَعِقاً، فلطف الله به وشمله برحمته، فأفاق من صَعقته، وقام يسبِّح الله الكبير المتعال.

أخذ مُوسى الألواح، وفيها ما يحتاج إليه بنو إسرائيل، مَوْعظةً وتفصيلاً لكل شيء، فقال: يا رب لقد أكْرمتني بكرامة لم تُكْرِمْ بها أحداً قبلي فقال يا مُوسى، إني اصْطَفَيْتكَ على الناس برسالاتي وبكلامي، فخذ ما آتيتك وكُنْ من الشاكرين.

وانتظر بنُو إسرائيل أن يوافيَهم مُوسى بعد ثلاثين يوماً من بدء غيبته، ولكنه ـ على غير علم منه ـ طال غيابُهُ حتى صار أربعين يوماً، فأجالوا الرأي بينهم وقالوا: إن مُوسى أخلفنا وعده، ونقض عهده، وتركنا في جَهل مقيم وليل بهيم، وما أجدرنا بمن ينير لنا المسالك، ويُرْشِدنا إلى سَواء السبيل!!

عندئذٍ تحركت في نفس السّامِرِيِّ نزوَةُ الشرِّ والفساد، فاغتنمها فرصةً، وقال لهم: عليكم أن تتخذوا لكم إلهاً، فليس موسى براجع إليكم، لأنه خرج ينشد إلهكم فضلَّ الطريق، فأبطأ عليكم وأخلف الميعاد!!

قال الشيطان قوله هذا بعد أن استشفَّ ما في نفوس القوم من خَوَر وانحلال أليسوا

---

(١) الأوار: الحر.

(٢) ألحف: الح.

هم الذين مالت قبلُ نفوسهم إلى الكُفر، وقد مَرُّوا على قوم يعكفون على أصنام لهم، فقالوا: يا مُوسى؛ اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة؟!

اغتنم السامريُّ هذه الجهالة الجهلاء، وتلك الضلالة العمياء، وأخذَ حُلِيًّا، ثم احتفر حفرة، وقذفها فيها، ثم أوقد ناراً، وصنع منها عجلاً جسداً له خُوار، فأصبح فتنةً بين القوم، أظهر منهم الكافر، وأبانت عَمَّنْ قوي إيمانه واسْتَيقن، ومن ضعف إيمانه ونافق.

فُـتنَ بنو إسرائيل بهذا العجل وعبدوه، فتقطعت نفس هارونَ أسىً وحزناً، وقال لهم: ﴿يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى ﴿٩٠﴾ قَالُوا۟ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾﴾[1].

فأقام هارون مع البقيّة الثابتين على وفائهم، المتمسكين بإيمانهم، وخشي أن يحارب الضالين الخارجين، حذراً من التحزب، وخوفاً من الفتنة والثورة.

استشعر موسى من ربه هذا الأمر، إذ قال: يا موسى، إنَّا قد فتنَّا قومك من بعدك وأضلّهُمُ السامريُّ. فلما أتمَّ ميقات ربِّه، وسار نحو قومه، وسمع على بُعْدٍ لغطاً وضجيجاً، أدرك سِرَّ الأمر، وحقيقة الحال، حيثُ همْ حوْل العجل يرقصون ويطربون، فتمكته نوبة من الغيظ والثورة، فألقى ما بيده من الألواح ثم دَلِفَ نحو هارون، وأخذ برأسه يجرُّه إليه قائلاً: ما منعك إذ رأيتهم ضلوا ألا تتبع طريقي فيهم، فتردَّ شاردهم وتحارب مُفسدهم، حتى تنطفىء هذه النار المتأجِّجة بالبغي والكُفران؟!

فتساقطت نفسُ هارون همًّا وحسرة، وأقبل على أخيه يَسْتَلينُه ويسترحمه، ويهدِّيءُ حدة نفسه وثورة غضبه، وقال: يابن أمٍّ لا تأخذْ بِلِحْيَتي ولا برأسي، فإن القوم استضعفوني وكادوا يقتلونني، فلا تُشْمِتْ بي الأعداء، ولا تجعلني مع القوم الظالمين. لقد خشيتُ أيها الأخ الكريم إن حارَبتُهمْ أن تقول فَـرَّقْتَ بَـيْـنَ بني إسرائيل ولم ترقبْ قولي.

عند ذلك سكَت عن موسى الغضب، وأخذ يعالج حالهم بحسن الرأي والحزم فالتفت إلى منبع الفتنة، ورأس البدعة، وداعية الضلالة، وقال: ما خطبكَ يا سامريّ؟ فقال

---

(١) سورة طه، الآية: ٩٠ و٩١.

السامريّ: ﴿بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي ﴿٩٦﴾﴾[١].

ثم أقبل موسى على قومه، فقال: يا قوم، ألم يَعِدُكم ربكم وعداً حسناً، أفطال عليكم العهد، أم أردتم أن يَحُلَّ عليكم غضب من ربكم فأخلفتم موعدي؟ قالوا: ما أخلفنا مَوْعِدَك بمَلْكِنا، ولكنا حُمِّلنا أوزاراً[٢] من زينة القوم، فصوَّرهَا لنا السامريّ، وأخرج لنا عجلاً جسداً له خُوار، فأضلنا عن الطريق المستقيم.

ثم ندمُوا على سَقْطتهم، واستغفروا ربهم، فقالوا: لئن لم يرحمنا ربنا ويغفر لنا لنكُونَنّ من الخاسرين، فقال لهم موسى: إنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل قالوا: فأيّ شيء نصنع؟ فقال لهم: توبوا إلى بارئكم، فسألوه أن يبينَ لهم طريق التوبة وسبيل المغفرة.

فقال موسى: عليكم بقَتْل أنْفُسِكم، اكْسرُوا حدتها، واكبِتوا شهوتها، وطهروها من الشر والإثم، وجَرِّدُوها عن كل مشتهىً مرغوب، وأقصوها عن كل مَرْجُوّ مطلوب، حتى يَصغَرَ شأن النفس الآثمة، ويهونَ خَطبُهَا، ويحقر أمرها، فروّضُوا أرواحهم، وهذبوا نفوسهم، وأقبلوا على نبيهم، فتابَ الله عليهم إنه هو التوابُ الرَّحيم.

أما السامريُّ الذي أشاع تلك الضلالة المنكَرة، فإنّ الله عاقَبَهُ في دنياه بأن أمر بني إسرائيل ألا يخالطوه، ولا يَقْرَبوه، فصار وحشيًّا، لا يَأْلَفُ، ولا يُؤلفُ، ولا يدنو من الناس، ولا يمسُّ أحداً منهم، وإن له لموعداً لن يخلفه يوم القيامة، يوم يساقُ إلى النار آثماً، ليعذّب بما جنت يداه، وبئسَ مصير الظالمين.

وأمَّا عِجْلُه فقد أحرقه موسى وألقاهُ في اليمِّ[٣]، وبذلك انجابَتْ غَيَابةُ هذه الجريمة الشنعاء.

---

(١) سورة طه، الآية: ٩٦.
(٢) أوزار: أثقال.
(٣) أليم: البحر.

التيـه

لم يكُن على عهد بني إسرائيل قومٌ حباهم الله الخير، وأفاض عليهم النعمة، وآثرهم بالبركات مثل هؤلاء الأقوام، نجّاهم الله من آل فرعون بعد أن سامُوهم[١] العذاب دهراً! ثم عاد فأهلك فرعون على أيديهم، وبين أسماعهم وأبصارهم، ثم جعلهم بعد ذلك أحراراً، بعد أن كانوا عبيداً أذلاء، وجعل فيهم عدداً من الأنبياء يرشدونهم وقد كانوا ضُلاَّلا جهلاء، وفجر لهم الصخر وأنزل عليهم المَنَّ والسَّلْوَى، وآتاهم ما لم يؤتِ أحداً من العالمين.

وإتماماً لنعمة الله عليهم، ورغبةً منه ـ سبحانه ـ في الإحسان إليهم، أوحى إلى موسى أن يقودهم إلى الأرض المقدسة من بلاد الشام، وهي أرضُ الميعاد، التي وَعَد الله إبراهيم الخليل أن يجعلها ملكاً للصالحين من ذُرِّيته والقائمين على شريعته.

ولكن بني إسرائيل كانوا ـ بما تَعَاوَرَ[٢] عليهم من ظلم الفراعنة، وترادف عليهم من جَوْر الحكام ـ قد جُدِعَتْ أنوفهم، وَذَلّتْ جباههم على خُنوع ـ وأعطوا المقادة على خُضوع، حتى هان عليهم الهوان، وحُبِّب إليهم الضعف والاستسلام...

مـن يَهُـنْ يَسْهُـل الهـوانُ عليـه ... مـا لِجَـرْحٍ بميِّـتٍ إيـلامُ

فلم يكادوا يسمعون كلمة الغَزْوِ، أو يكلَّفون دخول «أريحاء»[٣] ليخرجوا منها الحيثيِّين والكنعانيين، ويتخذوها وطناً كثير الخيرات، وافر البركات، حتى قالوا لموسى ـ جُبناً وضعفاً، واستخذاء واستسلاماً ـ ﴿إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا ۖ فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ ﴿٢٢﴾﴾[٤]. وكأنهم طمِعُوا أنْ يخرج القوم منها بما أَلِفُوا من المعجزات، وخوارق العادات، ثم يدخلوا موفورين لم يُكْلَمْ[٥] أحد منهم في سبيل الله بكَلم، ولم يُصَب بجرح، شأن الضعيف العاجز والخائر الجبان!

---

(١) سام الشيء: لزمه ولم يبرح عنه.
(٢) عاور فلاناً الشيء: فعل به مثل ما فعل به صاحبه.
(٣) أريحا: مدينة الجبارين في الغور من أرض الأردن (معجم البلدان: ١/ ٦٥).
(٤) سورة المائدة، الآية: ٢٢.
(٥) كلمه كلماً: جرحه.

ولكنَّ رجلين كانا ممنْ طبعهم الله على الإيمان، وفطر نفوسهم على الطاعة والإذعان، لم يَحْطِبا في حَبْل أقْوَامهم، ولم يجريا في الحديث على غِرَارهم؛ فتوجَّها إلى قومهم ناصحين، وقاما فيهم مرشدين ﴿ٱدْخُلُوا۟ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾﴾[1].

ولكنهم عادوا إلى حديثِ جُبْنهم، وإعلان خوفهم، وزادوا على ذلك القِحَّة والتمرّد، والغباء والتبلد، وقالوا لموسى قولاً يُذهب صبر الحليم، ويثير وَجِيع الجرح الأليم، قالوا: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَا ۖ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾﴾[2].

وعند ذلك تلفّتَ مُوسى فلم يجد مَنْ يثق بمعرفته، ويعتمد على نصرته، إلا أخاه هارون، وهما وحيدان، في أضعف جد، وأنكدِ أتباع، وأمامهما عدوٌّ قوي المرَاس، كثير الجنود، فتوجه إلى الله قائلاً: ﴿رَبِّ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِى وَأَخِى ۖ فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٥﴾﴾[3].

فأوحى الله إليه: أن دَعْهم يتيهون في هذه البيداء، يضربُونَ في مجاهلها، ويخبطون في نواحيها أربعين عاماً، حتى يَفْنَى كبراؤهم، ويهلك رؤساؤهم، ويظهر بعدهم جيلٌ عزيزُ الجانب مَنيعُ الساحة، وحينئذٍ يعودون إلى الغَزْوِ ويركبون متن الجهاد.

البقــرة

تقدم بالشيخ تتابعُ الأيام، وأحسَّ بدنوِّ الأجل، وكان عَبْداً صالحاً لا تفتنُه زخارفُ الحياة عن الثقة والرجاء في الله، ولم يُلْهه التكاثر في المال والبنين، بل كان لا يملك سوى بقرة يأتي بها إلى الغيْضَة[4]، ثم يتوجه إلى بارئه بقلب خالص، ونفس ثابته، فيقول: اللهم إني أستودعتكها لابني حتى يكبر، وما زال الرجل يترقرق في صدره هذا

(١) سورة المائدة، الآية: ٢٣.
(٢) سورة المائدة، الآية: ٢٤.
(٣) سورة المائدة، الآية: ٢٥.
(٤) الغيضة: الموضع يكثر فيه الشجر ويلتف.

الأمل القويّ بنور الله حتى مات وبقيت البقرة لليتيم، وهي عَـرَضٌ من العُـرُوض لا تغني شيئاً، إلا أن رحمة الله أبقى وأعزّ.

واستمرَّ اليتيم يرعى البقرة، يحدوه، شُـعَاع من الأمل ورثه، من الصالحات الباقيات لأبيه.

وقد كان من وجوه بني إسرائيل شَـيْخ مُوسِر مدَّ الله في أسباب دنياه، وبسط له نعمة الغنى، ورزقه ابناً وحيداً تنحدرُ إليه بعد موت أبيه كلُّ هذه الثروة الواسعة، ولكن بني عمومته نفسوا[١] عليه هذا المال؛ إذ لا يجدون من قليل ولا كثير، فتألَّبُوا عليه فقتلوه، ثم طالبوا قوماً آخرين بدمه، فهبَّتْ عاصفة هوجاء، وثارت ريح نَكْبَاء، فلم يجد القوم ملجأ أمامهم إلا باب موسى عليه السلام، يتحاكمون إليه، ويلتمسون عنده إيضاح الخفاء.

سأل موسى ربه، فأمرهم أن يذبحوا بقرة، ويضربوه بلسانها فيحيا، فيخبر بقاتله، فضلّت أحلامهم، وعَزَبت عن عقولهم قوةُ الله وقدرته، وظنوا أن موسى يهزأ بهم، ويسفّه أحلامهم؛ فراجعوه، فقال: أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين.

ولو أنهم ذبحوا أيَّ بقرةٍ من يوم أنْ أمرهم رسولُهم لكانت كافيةً، ولكنهم تمَادَوْا في إلحافهم ولجاجهم، فشدّد الله عليهم، وجعل البقرة مسوَّمة بعلامات خفي عليهم أمرها، فتاهوا في بيداء اللجاج.

ولقد كان هذا أمراً خارقاً، وحقيقة تقصِّر عن صدقها عقولهم، فسألوا ضالين: ما هذه البقرة؟ أكما عهدنا هذا الجنس من الحيوان، أم هي خلق آخر تفرّد بمزية، واختص بإعجاز؟ فأوضح الله سبيلهم، وبيَّنَ أنها بقرة لا مُسِنَّة ولا فتيَّة، بل هي عوان[٢] بين ذلك، فليفعلوا ما يؤمرون.

ولكنهم ـ وهم من البشر ـ قالوا: ادع لنا ربك يبيِّن لنا ما لونها؟ قال: إنه يقول: إنها بقرة صفراء فاقعٌ لونها تسُرُّ الناظرين، فازدادت حَيْرَتهم، وضلت عقولهم، فلم تستطع أن تسموَ إلى هذا الإلهام الإلهي العجيب، وكأنهم لم يَعُوا شيئاً، فكَرَّرُوا سؤالهم الأوّلَ معتذرين بأن البقر تَشابه عليهم وهم يرجون بمشيئة الله الهُدَى والرَّشاد.

---

(١) نَفِسَ بالشيء على فلان: حسده عليه ولم يره أهلاً له.

(٢) العوان: المتوسطة في العمر بين الصغر والكبر.

فأجيبُوا بأنها بقرة غير مُعَدَّةٍ لِسَقْي ولا لحرث، سلمت من العيوب، ولا شيةَ[١] فيها.

فاهتدوا إليها بعد لأيٍ عند ذلك اليتيم الذي بارك الله في بقرته، فاشتروها منه بمال وافر، فذبحوها بعد حيرة طويلة وتردد كثير.

* * *

موسى والخضر

وقف موسى عليه السلام خطيباً في بني إسرائيل، مذكراً لهم بأيام الله بعبارات تُثير الأسى وتبعث الشئون، ففاضت العيون، ورقت القلوب.

ولما انتهى من قوله تعلق بأهدابه رجل، وقال: أيْ رسولَ الله، هل في الأرض مَنْ هو أعْلَمُ منك؟ قال: لا. أَلَيْسَ هو كبير أنبياء بني إسرائيل وقاهر فرعون؟ أو ليس هو صاحب اليد والعصا، بعصاه انفلق البحر؟ أليس الله قد شَرَّفه بالتَّوْراة، وكلمه جَهْرَة وعِيَاناً، فأيُّ غاية أبعد من هذه الغاية؟ وأي شرف أسمى من هذا الشرف؟

ولكن الله أوحى إليه أن العلم أعظم من أن يحويهَ رجل، أو ينفرد به رسول، وأن في الأرض من خَصَّهُ الله بعلم أوْفَر من علمه، ونصيب من الإلهام أوفر من نصيبه، قال: يا رب، أين مكانه لَعَلِّي ألقاه، فأصيبَ قبَساً من علمه، أو فيضاً من إلهامه ويقينه؟ قال: تلْقَاه بمَجْمَع البحرين[٢]. قال: اجعل لي علماً يدلّني عليه، وآية ترشدني إليه، قال: آية ذلك أن تأخذ حوتاً[٣] في مِكْتَل، فحيث فقدت الحوت فقد وجدت الرجل.

فأخذ موسى للأمر عُدَّته، واصطحب فتاه، وحمله المِكْتل، ووضع الحوت فيه كما أوحى إليه ربه، وظل سائراً وقِبْلَتُه الرجل، وأخذ على نفسه عهداً أنه سيظل مجِداً في السير مُمْعِناً في الطلب، حتى يبلغ هذا المكان، ولو مضت عليه الأيام، أو تعاقبت السنون، ثم آذن الفتى أن يخبره إذا فقد الحوت.

ولما بلغا مَجْمَع البحرين، في المكان الذي أراد الله أن يلتقي فيه نبيّ بني إسرائيل

---

(١) لا شية فيها: أي ليس فيها لون غير لونها.

(٢) مجمع البحرين: ملتقى بحر الروم وبحر فارس مما يلي المشرق أي المكان الجامع لذلك.

(٣) الحوت: السمكة، صغيرة أو كبيرة.

بعبده الصالح، أخذتْ موسى سِنَةٌ فنام، وفي أثناء نومه هَضبت[١] السماء، فابْتَلَّ الحوت وانتفض، وسرت إليه الحياة، ثم قفز إلى الماء.

واستيقظ موسى ـ عليه السلام ـ ونادى فتاهُ: هَيَّا نواصل السير والسُّرَى، وأنْسى الشيطانُ الفتى ما كان من أمر الحوت، وتابعاً المسير إلى أن أدركها الأيْنُ[٢] وأحَسَّا الجوع، فقال موسى لفتاه: آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نَصبا.

ولما هَمَّ أن يأخذ الغَداء من المِكْتل تذكَّر ما كان من أمر الحوت وذهابه في الماء، فقال: أرأيتَ إذْ أوَيْنا إلى الصخرة، وحين غَشاك النعاس، فإن الحوت قد اتخذ سبيله إلى الماء، ونسيتُ أن أذكرك، وما أنساني إلاّ الشيطان.

وحينئذٍ لاَحَتْ لموسى شارةُ الظفر، ووجد ريح الرجل، فقال: ذلك ما كنا نبغيه وننشُده، هَيَّا بنا نعود إلى هذا المكان فإننا سنصادف رجلاً، ورجعا يَقُوفَان[٣] الأثر ويتعرفان الطريق.

ولما وصلا إلى حيث فقدا الحوتَ وجدا رجلاً نحيل الجسم، غائر العينين، عليه دلائل النبوة، وفي وجهه فَيْضٌ من السماحة والتقوى، قد سُجِّي بثوبه، وجعل طرَفه تحت رجليه، وطرَفه الآخر تحت رأسه. فسلّم عليه موسى فكشف عن وجهه، وقال: هل بأرضي من سلام! من أنت؟ قال: أنا موسى! قال: موسى نبيُّ بني إسرائيل؟ قال: نعم، ومن أعلمك بهذا! قال: الذي بعثك إليّ. فعلم موسى أنه ضالتهُ التي ينشدها، وبُغيتُه التي جهد في سبيلها، فتلَّطف في القول، وتجمّل بأحسن ما وهبه الله من أدب الحديث وفَضْل التواضع، وقال: هل تأذن أيها العبد الصالح لرجل جاهد في سبيل لِقَائك، وَلَقِيَ العناء حتى أصاب موضعك، أن تفيضَ عليه من علمك، وأن تقبسه شيئاً من هديك، على أن أتبعك، وأسير في ظلِّك، وألتزم أمرك ونهيك!؟

قال له الخضر: إنَّكَ لن تستطيع معي صبراً، ولو أنك صحبتَني فإنك سترى ظواهر عجيبة وأموراً غريبة، وسترى أموراً منكَرَة في ظاهرها، وإن كانت حقاً في باطنها، ولكنك

---

(١) هضبت السماء: دام مطرها أياماً لا يقلع.
(٢) الأين: الإعياء والتعب.
(٣) قاف أثره: تبعه.

بما ركَّب الله في البشر من إلْفِ القيل والقال والجنوح إلى البحث والجدال، سوف لا تسكت عن الاعتراض، ولا تتورع عن الامتعاض، وكيف تصبر على ما يخرج عن مألوفك، ويتجاوز معروفك؟ فقال له موسى، وكان حريصاً على العلم، تَوَّاقاً إلى المعرفة ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾﴾[١].

قال الخضر: إن صَحِبْتَني آخذُ عليك عهداً وشرطاً، أن تأخذ عُدّتك من الحزم والصبر، ونصيبَك من الْجَلَد وضبط النفس؛ فلا تَبْتَدِرْني بسؤال، ولا تُثر أمامي أيَّ اعتراض، حتى ينقضي الشرط وتنتهي الرحلة، وإني بعدها سآتي على ما في نفسك، وأشْفي ما بصدرك.

فقبل موسى الشرط، وقيّد نفسه بذلك العهد، وسارَا على الساحل، حتى لمحا سفينة في البحر، فطلبا من أهلها حملهما إلى حيث يذهبون. ولما قرءُوا السماحة في وجههما، ورأوا بريق النبُوَّة يلمع في عيونهما، حملوهما من غير نَوْل[٢]، وبالَـغُوا في إكرامهما، والحفاوة بهما.

وبينما هما في السفينة، وعلى حين غَفْلَةٍ من أهلها، أخذ الخضر لوحَيْنِ من خشب السفينة فخلعها، فهال موسى ـ وهو الرسول الكَريم الذي أُرْسِلَ لهداية الناس وردّ عادية الظلم عنهم ـ أن يُقَابل صنيعهم بالإساءة، وجميلهم بالنكْران، وخشيَ أن يصيبهم غَـرَق أو هلاك، فنسي عهده وشرطه، وصاح: أتَعمِد إلى قوم أكرموا وِفـادتنـا، وأحسنُـوا لقـاءنـا، فتخـرق سفينتهـم وتحـاول إغْـرَاقهـم؟! ﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴿٧١﴾[٣]﴾[٤].

فالتفَت الخضر إليه، وما زاد على أن ذكَّره بشرطه، وما قَدَّره من قبل أنه سوف لا يصبر على سؤال، ولا يسكت على مراء، وقال: ﴿أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾﴾[٥] وحينئذٍ أدرك موسى ما وقع فيه من خطأ، وما تَوَرَّط فيه من نسيان؛ فاعتذر إليه واستغفره

(١) سورة الكهف، الآية: ٦٩.
(٢) نول: أجرة.
(٣) إمراً: أي عظيماً منكراً.
(٤) سورة الكهف، الآية: ٧١.
(٥) سورة الكهف، الآية: ٧٢.

من نسيانه، وقال: لا تُؤَاخِذْني بما نَسِيت، ولا تحرمني شرفَ الصحبة، وفَضْل المرافقة، وسأكون بعد الآن كما شرطت.

وغادرا السفينة، وتابعاً السير، فوجدا غلاماً وضيئاً يلعب مع لِدَاته وأقْرَانِه، فأخذه الخضر بعيداً ثم أضجعَه وقتله! ففزع موسى من هذا القتل، وكَبُرَ عنده ذلك الإثم؛ إذ رأى غلاماً يافعاً، قد يكون وحيد أهله، ورجاء والديه، يُقتَل في غير قَوَد[١]، ويُسْفك دمه من غير إثم، على يد رَبَّانيّ كريم، وإمام من أئمة الدين! فتحللَ من عهده، وأطلق نفسه من ميثاقه، وقال: ما هذا المنكر الذي تأتيه، والإثمُ الذي ترتكبه؟ ﴿أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾﴾[٢].

فالتفَت إليه الخضر، ولم يزد على أن ذكَّره بعهده، وما كان من شرطه، وما قَدّره مما سيكون من سؤاله عما لا يعرف، وامتعاضه مما لا يألف، قائلاً: ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾﴾[٣].

وهنا استحيا موسى، وأدرك أنه قد أثْقَلَ على هذا العبد الصالح، وكان خليقاً به أن يُدَرع بالصبر، وَيُمْسِك لسانه عن الْجَدل، حتى يُفْصِح له بَعد عما خفَي من أمره، وما تشابه عليه من علمه، وخشيَ إن تمادى أن يقع منه على مَوْجدة أو كراهية، فاتخذ لنفسه شرطاً: ألا يعجِّل بسؤال بعد الآن، وإلا فإن رفيقه في حلٍّ من مفارقته، وقَطْع صحبته، وقال: ﴿إِن سَأَلْتُكَ عَن شَىْءٍۭ بَعْدَهَا فَلَا تُصَٰحِبْنِى ۖ قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّى عُذْرًا ﴿٧٦﴾﴾[٤].

وانطلقا على هذا الشرط حتى أدركهما الطّوَى[٥]، ونال منهما النّصَبُ والكَلال، وصادفا قرية في طريقهما، فدخلاها طمعاً في زادٍ يعينهما على السير، وَيُـمْسِكهما على الجوع، ولكنَّ أهلها ـ بما كانوا عليه من لؤم النحيزة[٦] وكزَازةِ النفس ـ أبَوْا أن يَضَيّفوهما، وردوهما ردًّا غير جميل، فلم يجدا عندهم مأوى ولا طعاماً، وخرجاً جائعين ساخطين.

---

(١) القود: القصاص.
(٢) سورة الكهف، الآية: ٧٤.
(٣) سورة الكهف، الآية: ٧٥.
(٤) سورة الكهف، الآية: ٧٦.
(٥) الطَّوى: الجوع.
(٦) النحيزة: الطبيعة.

وقبل أن يجاوزا القَـرْية وجدا جِداراً يتداعَى للسقوط، فأقامه الخضر، وأصلح من شأنه، فقال موسى: عجباً! أتجازِي هؤلاء القوم اللؤماء الذين أساءوا اللقاء، بهذا الإحسان؟! لو شئت لاتخذت على عملك هذا أجْراً نسدُّ به حاجتنا ونحفظ به على الحياة أنفسنا!

قال الخضر، وقد آمن بأن موسى سوف لا يستطيع بعد الآن صبراً: ﴿ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ ۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾ ﴾[1].

أمَّا السفينة فكانت لمساكين يَـعْملون في البـحْرِ، فيصيبون منها رزقاً، يعينهم على الكسب، ويقطعون به مفازة الحياة، ولكن مَلِكاً ظالماً كان يتبع كل سفينة صالحة، يأخذها من أهلها عَـنْـوَةً، وَيَـسْـتَوْلِي عليها غَصْباً؛ فأردت أن أعيبَهَا، رفقاً بهم ورحمة لهم، حتى إذا شهدها مَلِكهُم تركها لعَيْبِهَا، فهذا عمل إن كان ظاهره الفسادُ ففي باطنه الرحمة، وإن كُنْتَ قد حسبْتَهُ نكْراً فإنما هو حِفْظٌ للمساكين وإبقاءٌ على حياة هؤلاء البائسين.

وأما الغلامُ فكان وَقَاحاً مُـبَـغَّضاً من الناس، وكان أبَوَاه مؤمنين، وبما فطر الله الآباء على حب الأبناء، والدفاع عنهم بالحق وبالباطل، خشيت أن يحملهما هذا على التعصب له والميل إلى طريقته، فينتهيا إلى الطغيان والكُفر؛ فقتلتُه حفظاً لدينهما، ورجاء من الله أن يرزقهما خيراً منه زكاةً وأقرب رُحْماً.

وأما الجدار فقد علمتُ من الله أن تحته كنزاً ليتيمين صغيرين، تحَدَّرا من رجل صالح كريم؛ فأردت أن أحميَ هذا الجدار، حتى يشتد أزرُهُما، وَيَـقوَى على الحياة أمرهما؛ فيستخرجا كنزهما مالاً حلالاً طيباً لهما.

وما فعلت هذا بعلمي ولا برأيـي، ولكنه وَحْيٌ من الله وَهَدْيٌ منه ﴿ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾ ﴾[2].

* * *

(١) سورة: الكهف، الآية: ٧٨.
(٢) سورة: الكهف، الآية: ٨٢.